الوحي هو المصدر الحقيقي للقرآن الكريم

عمر سالم عمر البيي*

مـقـدمـــة:

الشأن في دراسة مصدر أي كتاب أن تسبق بدراسة محتواه غير أن القرآن الكريم يختلف عن غيره، فإن دراسة مصدره تحتم مخالفة هذه القاعدة، ذلك أن فكرة مصدره الإلهي هي الجزء الأساسي في دعوته، إذ نراه من أول القرآن إلى آخره يتحدث إلى الرسول أو عنه ولا يتركه يعبر عن فكره الشخصي في كل جزء منه يتكلم الله تبارك وتعالى ليصدر أمراً أو ليشرع قانوناً، ليخبر أو لينذر، يا أيها النبي، يا أيها الرسول، إنا أوحينا إليك، إنا أرسلناك، بلغ ما أنزل إليك، إتل عليهم، قل، سيقولون، افعل، لا تفعل.

تلك الدراسة التي تجعل من الرسول صلى الله عليه وسلم أداة استقبال تقدم كتاباً جاهزاً دون أي تحريف من مصدر خارجي غير بشري، «ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين»[1]، وعلى الرغم من مخالفة هذا الإدعاء للقوانين الطبيعية والنفسية ولو في مظهرها العادي لم يكن محمداً صلى الله عليه وسلم بدعاً من الرسل في إثارة قضية الوحي بل كان أكثر تواضعاً من موسى عليه السلام الذي تلقى التوراة كما يقول القرآن في لقاء مباشر بينه وبين الله تعالى، حيث سمع كلامه أما محمد صلى الله عليه وسلم فانه تلقى كتابه «القرآن الكريم» بواسطة ملك سماوي، «انه لقول رسول كريم»[2]، ونحن أولاً فضلاً عن إيماننا بالوحي فمن حقنا ألا نطبقه على ظاهرة معينة إلا بعد استنفاد وسائل التفسير الطبيعي لهذه الظاهرة ثم بعد

* محاضر بكلية التربية، جامعة الفاتح، طرابلس، ليبيا.

(1) الحاقة، آية 44-46.

(2) انظر مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد دراز ص 126 وما بعدها، ط. دار القرآن الكريم.

رضوخنا في النهاية واعترافنا بمنشئها الإلهي يكون ذلك الاعتراف آخر مطاف بحثنا وقرار علمنا بعد استنفادنا لجميع الوسائل الممكنة.

فلنبعد من بحثنا الآن كل حجة يمكن استخلاصها من مضمون القرآن ومحتواه صارخة بمصدره الإلهي، ثم بعد ذلك يمكن أن نتساءل هل يصح أن تعزى الأفكار التي اشتمل عليها القرآن الكريم إلى مصدر آخر غير الوحي؟ إن كثيراً من البحوث والدراسات قد نهجت هذا المنهج وسلكت ذلك المسلك، والقرآن الكريم والسنة المطهرة قد تكفلا بتسجيل جميع الآراء التي أبداها معاصرو الرسالة المحمدية في تبرير هذه الظاهرة وتعليلها وهي تحتوي على افتراضات كثيرة لا تعتمد على الحلول الممكنة المعقولة فحسب و إنما تجنح إلى كل مستحيل وغير معقول، وهذا مما يجعلني اسارع في القول بأن هذا البحث كغيره من البحوث الحديثة في هذا المجال لا يعدو أن يكون تكراراً لما قيل قديما وان اختلف في الاسلوب وتباين في الشكل، ولكن الذي دفعني إلى اقتحامه هو تلك الموجة التشكيكية التي تسود العالم، خاصة ما يراه المشككون يوقع شبابنا المسلم في ضلال الشك ويحقق لهم ما يرمون إليه من تدليس وتلبيس ليتسنى لهم بعد ذلك أن يسلبوا عقيدتهم ويصرفوهم عن مصدر عزتهم الذي جعل من المسلمين لأول عهدهم بالإسلام «كنتم خير أمة اخرجت للناس»[1]، وسنقوم بدراسة مختلف الحلول بشكلها الحاضر متتبعين في هذه الدراسة الترتيب الزمني فنقسم هذه الدراسة إلى مرحلتين الفترة المكية، الفترة المدنية.

تلمس مصدر للقرآن الكريم في الفترة المكية:

وسنتجه في بحثنا هذا إلى كل من «الوسط الوثني»، «الصابئيين»، «العناصر اليهودية والمسيحية»، «اطلاع الرسول»، «رحلاته ومشاهداته»، «الادب والاساطير الشعبية»، «تأملاته الشخصية».

---

(1) آل عمران، آية 110.

الوسط الوثني:

تحدثنا المصادر التاريخية على أن المجتمع العربي وان اختلفت نظرته قليلاً عن الوثنيات الأخرى السائدة في العالم، حيث انهم لا يرون أن هذه الاصنام آلهة مستقلة، وإنما يجعلونها شريكة لله ووسيطة بينهم وبينه، وبهذا يطمسون معالم التوحيد في ركام الخرافات كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»[1]، «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»[2]، ولم يكن الجانب الخلقي والإجتماعي أسعد حظاً من جانب التوحيد ولا أحسن حالاً، فقد سجل عليهم القرآن الكريم كثيراً من الاخلاق الذميمة والظواهر الظالمة كقتل الأولاد وتحريم ما أحل الله «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين»[3]، والبغاء وزنا المحارم «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا»[4]، «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا»[5]، وظلم اليتامى وابتزاز المهور «والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط»[6]، «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن»[7]، «وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا»[8]، بالإضافة إلى الجشع و إهمال الفقراء والازدراء بالضعفاء الذي كان الطابع الغالب لهذا المجتمع حتى ان القرآن الكريم قد أسقط المروءة العربية واعتبرها عاطفة في غير محلها لطخت بالرذيلة والفساد «والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر»[9]، وبإيجاز كانت حياتهم حياة الضلال المبين كما صورها القرآن الكريم، «و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين».[10]

ولا أدري كيف ساغ لبعض الكتاب الغربيين كـ«رنان» أن يقدم صورة جميلة ونموذجاً فريداً لحياة العرب قبل بزوغ فجر الإسلام «فمن مقال تحت عنوان (محمد

---

(1) يوسف، آية 106.
(2) الزمر، آية 3.
(3) الأنعام، اية 140.
(4) النور، آية 33.
(5) النساء، آية 22-24.
(6) النساء، آية 122.
(7) النساء، آية 19.
(8) النساء، آية 21.
(9) النساء، آية 38.
(10) آل عمران، آية 164.

ومصادر الإسلام) عرض لنا هذا العالم الفرنسي صورة رائعة للجزيرة العربية في القرن السادس بعد الميلاد، وبدلاً من هذا الشعب المشرك الذي تعرفه الدنيا وضع لنا شعباً آخر لم يعرف في حياته عن الله تعدداً ولا تنوعاً و إنما عرفه كإله واحد لم يلد ولم يولد، فبدلاً من هذه النزعة المادية الفاسدة التي لا تلتفت إلى أي تفكير ينتمي إلى الحقائق السامية رسم لنا مجتمعاً في أوج حماسه الديني التقت فيه جميع الديانات وانصبت فيه جميع الحضارات وكان الدين شغله الشاغل»[1]، وبناءاً على هذه الصورة المشرقة لا تعدو أن تكون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا امتداداً لهذه الحركة الدينية السائدة في عصره دون أن يسبقها في أي جديد.

ولعل «رنان» اعتمد على الحفنة القليلة المتمردة على هذا المجتمع المشرك، وهي ما تعرف في الاثر بالحنفاء وهم فئة قليلة من الرجال تعد على الاصابع ثاروا على اشراك قومهم وعلى عاداتهم الذميمة القاسية واباحيتهم الماجنة التي لم تكن نفوس هؤلاء النفر لترضى عنها فجعلتهم في حالة قلق يتطلعون إلى دين صحيح حاولوا إلتماسه خارج بيئتهم ولم تكن لديهم أي فكرة واضحة دقيقة يمكن جعلها مصدراً لدعوة القرآن الكريم، ولقد اعترف بذلك أكثر هؤلاء النفر حزماً وهو «زيد بن عمرو» حيث كان يناجي ربه قائلاً: «يا رب لو أني أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به ولكن لا أعلم»[2]، وكل ما يمكن استخلاصه من وجود هؤلاء الحنفاء وهو ما صرح به «رنان» ذاته عن حق انه كان يوجد في ذلك الوقت نوع من القلق والانتظار المبهم الذي كان يتفاعل في هذه النفوس الممتازة نتيجة مشاعر وتوقعات ورغبات غير محددة، ومهما ردد الناس من عبارات: «الله، والدين، والانبياء، والكتب، والجنة» في هذه المرحلة فلم يكن لهذه الكلمات صدى في نفوسهم عن أية فكرة واضحة ومتميزة[3]، وحيث اننا في بحث هذا الوسط لم نظفر بما يصلح مصدراً للقرآن الكريم فلنتجه إلى مذهب الصابئيين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وهم طائفة وثنية متميزة «صابئي حران الذين ينسبون أنفسهم إلى صابئي بن ست الذي كان يدعي نشر تعاليم ديانة أبيه وأنه كان عنده كتاباً بالسريانية»[4]، ويقول الرازي: «الصابئيين فهو مأخوذ من صبأ إذا خرج من

---

(1) مدخل، ص 129.

(2) الاصنام، لابن الكلبي، ص 21.

(3) مدخل، ص132.

(4) نفس المصدر السابق.

دينه إلى دين آخر وهم قوم كانوا يعبدون الكواكب»[1]، ويذهب صاحب المصباح المنير على أنها هي ذاتها الطائفة الوثنية الأولى التي كانت تنتحل هذا الاسم، ولقد سكت القرآن والسنة عن دراسة وتحليل مبادىء هذه الفرقة على حين أنهما فندا الأفكار والشعائر المعروفة للصابئين المنتشرة في المجتمع القرشي إلى درجة أنه يصعب فصلها عن الوثنية السائدة في هذا المجتمع وذلك مثل:

(1) تأليه الملائكة والكواكب وتأثيرها في الكائنات الأرضية.

(2) نصيب الأسد الذي كان يقدم من القرابين إلى الآلهة الأقل في الدرجة بدلاً من تقديمها إلى الله.

(3) عبارة الابتهال التي كانت تتضمن الشرك بالله ومستخدمة في الحج.

بالإضافة إلى تلك العادات والشائر الاخرى التي تميزت بها هذه الفرقة عن العادات الوثنية والإسلامية، فقد كان الحج يؤدي عند الصابئين بحران وليس حول الكعبة كما كانوا يحرقون القرابين ولا يأكلون منها شيئاً ويحرمون تعدد الزوجات ولا يزاولون الختان، كما كانت عبادتهم أيضاً طقوساً يقصد بها الكواكب تؤدى ثلاث مرات في اليوم عند شروق الشمس وزوالها وغروبها.[2]

ومن هذا العرض السريع يتضح لنا في جلاء ووضوح أن هذه الوثنية السائدة في الحجاز سواء وصفت بالرقة أو الخشونة، بالخرافة أو بروح النقد، عاجزة عن أن تقدم لنا تفسيراً قويماً عن مصدر القرآن الكريم، وعليه فلا مناص لنا من ترك هذا الوسط والتوجه ببحثنا إلى صوب آخر فلعل البيئة اليهودية والمسيحية وقتئذ أرحب صدراً فتلقي لنا الضوء على ما نحن بصدده، وسوف لا تشدنا كثيراً قصة الراهب بحيرى التي وردت في أثر تلك القصة التي مفادها أن محمداً صلى الله عليه وسلم وهو في الثانية عشرة من عمره قد صاحب عمه أبا طالب في تجارة إلى سوريا، وفي أثناء الطريق قابله هذا الراهب.

فمعطيات هذه القصة تمنعنا من جعل هذه المقابلة العارضة هي المصدر لتعليم محمد عليه الصلاة والسلام رسالته، لأن هذه الحادثة إما أنها اسطورة من الأساطير، أو أنه لابد أن نأخذ بعين الاعتبار كل معطيات القصة إذ أنها تذكر أن هذه المقابلة تمت

---

(1) مفاتيح الغيب، جـ 1، ص 549.

(2) انظر مدخل، ص 134.

في حضور جميع أفراد القافلة وأن محمداً كان دوره فيها مسؤولاً لا مستمعاً، وبانتهاء الاستجواب استخلص الراهب أن هذا الشاب يتوقع أن يبعث رسولاً في المستقبل، وأشار على عمه بالرجوع به خوفاً عليه. ففكرة القصة تفند نفسها وينقل الدكتور «دراز» تعليقاً على هذه القصة من مقال هوارت: «لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المستند إلى هذا الراهب السوري إلا مجرد قصة من نسج الخيال»[1]، وهنا يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنتصفح احتمالاً آخر من هذا النوع يزعم بعض الكتاب أنه وجد في بعض ضواحي مكة نفر من المغامرين الرومان أو الزنوج الاحباش يبيعون النبيذ في الاحياء المنزوية وقد قرىء الأنجيل في هذه الحانات، وعليه فلا يبعد أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام قد استقى أفكاره الدينية من هذا الوسط، ويتركون الموضوع مبهماً في غاية الغموض ولا يقدمون دليلاً واحداً على أن محمداً عليه الصلاة والسلام كانت له علاقة فعلية بهذا الوسط الهابط.[2]

وسوف لا نعول كثيراً على هذه الخرافة لعدة أسباب منها، أن شواغل الرسول عليه الصلاة والسلام قبل بعثته كانت واضحة ومعروفة ومحددة، فالمصادر التاريخية الصحيحة ترسم لنا شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وهي تتحرك في مجالات ثلاث: في الخلاء راعياً للغنم، وفي التجارة مسافراً مع القوافل، وفي المجتمع مع رؤساء القبائل. فلا مشاغله ولا أخلاقه تسمح لنا بأن نتصوره من رواد هذه البيئة الموبوءة، ومهما نفترض أن هؤلاء المطمورين كانوا على علم من دينهم أفلم تكن لغتهم الاجنبية حاجزاً طبيعياً أمام النبي الأمي؟ وعلى مثل هذا الإدعاء تتجلى حجة القرآن الكريم في قوله تعالى: «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين»[3]، بالإضافة إلى أن هذا الوسط لو كان صالحاً لأن يكون مصدراً للقرآن الكريم لهرع إليه معارضوه وقضوا على دعوته في مهدها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء السفر إلى الأقطار المجاورة يلتمسون منها أسلحة علمية يوجهونها إلى صدر محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

والآن فلنترك هاتين الحادثتين جانباً وننقل الحديث إلى بيئة دائرتها أرحب وثقافتها أغنى، تلك البيئة التي يمكن أن تكون أفكارها الفلسفية وطقوسها الدينية قد

---

(1) مدخل، ص 134 هامش. (2) انظر مدخل، ص 135. (3) النحل، آية 103.

أسهمت في بناء صرح الدعوة الإسلامية تلك البيئة هي بيئة أهل الكتاب من مسيحيين ويهود لاسيا وأن محمداً عليه الصلاة والسلام قبل بعثته كان يسافر من وقت لآخر إلى الشام، وربما إلى اليمن، ومن المعروف تاريخياً أن الغساسنة بسوريا قد اعتنقوا المسيحية وكذلك بنو الحارث في اليمن بنجران قد تسربت إليهم المسيحية عن طريق الاحباش[1]، أضف إلى ذلك وجود القبائل اليهودية بالمدينة وخيبر، التي لم يتصل بها محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد هجرته إلى المدينة، فهل لنا أن نقول ان محمداً عليه الصلاة والسلام بما عرف عنه من ذكاء واهتمام بالمسائل الأخلاقية قد تأثر بأخلاق هذه البيئة وأفكارها التي يقول فيها الدكتور «دراز»: «فلقد اعتقد هذا المفكر المجري أن مقارنة محمد عليه الصلاة والسلام، لحياة قومه وتقاليدهم بانطباعاته الحية التي اكتسبها من رحلاته العديدة قد أوجدت عنده الدفعة الأولى لنظامه (الإصلاحي)»[2]، فلنساير هذا المفكر قليلاً لنرى إلى أي حد سيساعدنا رأيه في ايجاد مصدر للقرآن الكريم، ولكن نقول له: هل دخل محمد صلى الله عليه وسلم الأصقاع المسيحية؟

ان كثيراً من الكتاب يشكون في هذا، وذلك لعدم وجود أي إشارة في القرآن الكريم إلى المظاهر الخارجية للديانة المسيحية في حين أنه يغوص في أعماق روح المسيحية الشرقية على عكس مسلك شعراء العرب الذين عاصروا الرسول عليه الصلاة والسلام وقذفت بهم الاقدار إلى تلك الاصقاع، إلى جانب كتاب آخرين يرون أن رحلات القوافل التجارية التي صاحبها الرسول صلى الله عليه وسلم، لم تقده إلا إلى سوق «حباشا» بتهامة، و«غراش» باليمن ولنسلم جدلاً أنه اتصل بالبيئة المسيحية في ذلك الوقت، فهل سيجد ما يقنع طموحه ويملأ فراغه ويسر نفسه؟ فلنترك الجواب عن هذا التساؤل لبعض الكتاب المسيحيين الذين ينقل عنهم الدكتور «دراز» فيقول: «لنستمع أولاً إلى ملاحظات بعض الكتاب المسيحيين، يقول «جـ. سال»: إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم والخلافات على أتفه المسائل والمشاجرات التي لا تنتهي والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء

---

(1) انظر التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مدخل، ص 136.

(2) مدخل، ص 136.

شهواتهم واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة. قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود بفعل جدالهم المستمر حول طريقة فهمها، وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد، ولقد وجدت الكنيسة الشرقية نفسها بعد مجمع «نيقية» ممزقة بسبب الخلافات بين أنصار «أريوس»، و«سابليوس»، و«نسطور»، و« يوتيخيوس»، ولقد رأى رجال الدين أن يمنح ضباط الجيش بعض الحماية وبهذه الحجة كان العدل يباع علنا مما شجع كل نوع من أنواع الفساد والرشوة. أما بالنسبة للكنيسة الغربية فقد بلغ الخلاف بين دماز (Damase)، وأرز يسيان (Ursicien)، على كرسي الاسقفية بروما حد اللجوء إلى العنف والقتل ولقد قامت هذه الانشقاقات أساساً نتيجة أخطاء الاباطرة، ولاسيما الامبراطور «قسطنطس»، وزادت حدة في ظل حكم «جستنيان» الذي اعتقد أنه ليس هناك أي جرم في قتل أي رجل يخالفه في فهم العقيدة. هذا الفساد في العقيدة وفي الأخلاق الذي ساد بين الأمراء وبين رجال الدين استتبع بالضرورة فساد الشعب عامة حتى أصبح شغل الناس الشاغل على اختلافهم هوجمع المال بأية وسيلة مهما كانت لانفاقه بعد ذلك في الترف والرذيلة».

ولقد كتب تايلور في كتابه «المسيحية القديمة» يقول: إن ما قابله محمد، صلى الله عليه وسلم، وأتباعه في اتجاه لم يكن إلا خرافات منفردة ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة وطقوساً دينية منحلة وصبيانية بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة بأنهم رسل من قبل الله مكلفين باصلاح ما ألم بالعالم من فساد، وعندما أراد «موشايم» وصف هذا العصر رسم صورة للمقارنة أبرز فيها التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر وخرج بأن الديانة الحقيقية في القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة حتى انه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها[1]، هذه هي المسيحية والمسيحيون إبان نزول القرآن الكريم، وكأني بالآية القرآنية تصور بإيجاز هذه البيئة تصويراً صادقاً ومشيرة إلى البعد الذي كان بين المسيحية والمسيحيين حينذاك، وأنه سيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حيث تقول: «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء

(1) مدخل، ص 137.

إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون»[1]، ولم يكن العرب الذين تنصروا أفضل حالاً ولا أحسن مسلكاً من المسيحيين أنفسهم ذلك أن الغساسنة على الرغم من تنصرهم فقد احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الوثنية، ولقد ورد عن الإمام علي كرم الله وجهه: «ان ما أخذه التغالبة من المسيحية لم يكن سوى شرب الخمر»[2]، و إليك ما يقوله «هوارت» في هذا الصدد: «مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب محمد، صلى الله عليه وسلم، قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا فانه يتحتم استبعادها نظراً لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة».[3]

وكذلك اليهود الذين أشرنا إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يثبت أنه اتصل بهم إلا بعد الهجرة لم يكونوا أحسن حالاً ولا أوفر حظاً من المسيحيين وقد صور القرآن الكريم ما كانوا عليه من فساد في العقيدة وانهيار في الأخلاق وجشع في المعاملة[4]، في أكثر من آية «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما»[5]، فالصورة الواضحة التي تتجلى أمام نظر الباحث لهذه البيئة هي أنه حيثما اتجه وجد ضلالاً يحتاج إلى الهداية وانحرافاً يستدعي التقويم، ولن يجد نموذجاً أخلاقياً ودينياً يحتذى ونبراساً يضيء، حتى يتسنى لمحمد عليه الصلاة والسلام أن ينقله أو ينسج على منواله نظام دعوته الإصلاحية، و إنما الذي يصادفنا هو ذلكم الركام من المواد التي تصلح للهدم ولم يكن فيها ما يصلح لأن يقيم عليها محمد عليه الصلاة والسلام بناءه الجديد.

ولنوسع الآن دائرة بحثنا قليلاً حيث أننا لم نجد ما يصلح لأن يكون مصدراً للقرآن الكريم في الوسط المسيحي ولا في الوسط اليهودي، ونتلمس ذلك في بيئة الكتب والمطالعات، فلعل محمداً صلى الله عليه وسلم استخلص مقومات نظامه الاصلاحي من مطالعاته المباشرة للكتب المقدسة القديمة، لا فرق بين أن تكون يهودية أو مسيحية

---

(1) المائدة، آية 14.

(2) الكشاف جـ 1، ص 447.

(3) مدخل، ص 138.

(4) انظر مذكرتي للسترية الرابعة، مقارنة الأديان، اليهودية.

(5) النساء، آية 160-161.

أو غيرها، ولكن يبرز هنا تساؤل وهو هل كان محمد صلى الله عليه وسلم على علم بالقراءة والكتابة؟

ويسارع القرآن الكريم بالإجابة عن هذا السؤال بالنفي مبرهناً بأمية الرسول عليه الصلاة والسلام على ربانية دعوته، ولا يكتفي القرآن الكريم في إجابته بتقرير أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمي من شعب أمي، أي غير متعلم بل يصدع بصريح العبارة أنه لم يسبق له أن قرأ كتاباً أو كتب بيمينه، «وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون».[1]

ومع وجود هذه الإجابة الصريحة يحاول بعض المستشرقين أن يثبت العكس مستنداً إلى رواية مفادها أن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو في مرضه الأخير طلب منهم أن يحضروا له ما يكتب عليه وصيته بشأن الخلافة، وهذه الرواية ليست حجة لأنها لا تفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كتب بالفعل، ولا يصح أن نستنتج شيئاً من أمر لم يتم لا سيما بالنسبة لإنسان في حالة الاحتضار هذا من جهة ومن جهة اخرى ان استعمال لفظ يكتب بالنسبة للرؤساء والعظماء عموماً وخاصة بالنسبة لرئيس معروف لدى قومه أنه لم يعرف القراءة والكتابة، يقصد به أن يملي أو يضع خاتمة، وبهذا المعنى يستعمل الرواة هذا الفعل عند الحديث عن مراسلات الرسول صلى الله عليه وسلم، كتب إلى فلان أي بواسطة كتبته، وكذلك قولهم في صلح الحديبية، «بينما يكتب هو وسهيل إذ طلع»[2]، فان الذي كان يكتب بالفعل «علي» بإملاء من الرسول صلى الله عليه وسلم، ومهما حاول المشككون في أمية الرسول عليه الصلاة والسلام، فانهم عاجزون عن زعزعة هذه الحقيقة التي اعترف بها الرسول عليه الصلاة والسلام «نحن أمة أمية»، «ما أنا بقارىء»[3]، وصرح بها القرآن الكريم «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي»[4]، وشهد بها أتباعه وسلم بها أعداؤه الذين كانوا يعرفون هذه الأمية جيدا ولذا نراهم حينما أرادوا تعليل مصدر القرآن الكريم بأنه أساطير العصور القديمة لم يجرؤا على القول بأنه كتبها، وإنما قالوا اكتتبها «وقالوا أساطير الأولين

(1) العنكبوت، آية 48.
(2) انظر المجلد الأول من سيرة ابن هشام.
(3) المصدر السابق.
(4) الأعراف، آية 157.

اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا»[1]، والفرق بين التعبيرين واسع والاختلاف بينهما واضح، إلا أنه التبس معناهما على بعض المستشرقين كما أسلفنا عن قصد أو عن غير قصد.

وعلى فرض تسليمنا بأنه كان على دراية تامة بالقرأة والكتابة فهل لا تعتبر لغة الكتب المقدسة آنذاك عقبة في طريقه يستحيل تذليلها إذ أنه لم تكن التوراة ولا الإنجيل قد ترجمت الى اللغة العربية، إلا في حوالي القرن الحادي عشر كما يقول القس «شيد باك»، (بأنه لم يتمكن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد باللغة العربية إلى أبعد من القرن الحادي عشر)[2]، ووجود هذه الكتب بلغات أجنبية مما جعلها حكراً على نفر معينين يجيدون أكثر من لغة وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم يبخلون بما عندهم من العمل فإذا أظهروا شيئاً منه أخفوا الكثير كما يقول الله تعالى: «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا»[3]، إلى غير ذلك من الوسائل الاخرى التي سلكوها لاخفاء العلم شفوياً أو تحريرياً، «وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»[4]، «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا»[5]، على أن التاريخ لم يحدثنا بأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان له اتصال بوسط العلماء طيلة هذه الفترة المكية وإذا كانت بيئة أهل الكتاب بواسطة الكتب المقدسة مباشرة أو بواسطة دراسة منهجية من العلماء المتخصصين عاجزة عن إيجاد تفسير لمصدر القرآن الكريم فهل يجوز لنا أن نلتمس ذلك عند بعض شعراء العرب من المسيحيين واليهود وغيرهم؟

غير أننا سنواجه بصرخة مدوية من القرآن الكريم بأن الشعر بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم ضرب من اللهو الذي لا يليق بشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ولا تألفه نفسه، «وما علمناه الشعر وما ينبغي له»[6]، ورغم هذه الصرخة

---

(1) الفرقان، آية 5.
(2) هامش مدخل، ص 141.
(3) الانعام، آية 91.
(4) آل عمران، آية 78.
(5) البقرة، آية 79.
(6) يس، آية 69.

الجلية فاننا سنسبر غور هذا الجانب الادبي الذي سنجده يسير في اتجاهين:

الإتجاه الأول: وهو ما كان يركز على وصف التقاليد والطقوس الكنسية ذلك الطابع الذي لم يكن له وجود في القرآن الكريم، كما كان يهتم بوصف الخمر وتحبيذه الذي سنرى أن القرآن الكريم قد وجه إليه ضربته القاضية وحرمه تحريماً باتاً، فالقرآن الكريم إذاً لا ينتمي إلى هذا الإتجاه.

وأما **الإتجاه الثاني**: فقد كان يركز على الأفكار الدينية والنموذج الحي لهذا الإتجاه قصائد أمية بن أبي السلط فان الدارس لهذا الشعر سيرى تقارباً بينه وبين القرآن الكريم خاصة حينما يتحدث عن اليوم الآخر، وعن القصص الديني القديم، وقد حاول كثير من المستشرقين أن يجهد نفسه في إيجاد علاقة بين القرآن الكريم وبين معين هذا الشعر ليخرج على الناس باكتشاف جديد لمصدر القرآن الكريم، ولو لم تخفق هذه المحاولة وصاحبها التوفيق لأغنتنا عن التفسيرات الغيبية.

أولاً: إن ما يعترض طريق هذه المحاولة هو إثبات صحة الشعر الذي هو موضوع البحث ذلك أنه وجد أناس جمعوا الأشعار ونسبوها إلى القدماء بعد أن أضافوا إليها من اشعارهم.

ثانياً: أن يكون متقدماً زمناً على القرآن الكريم حتى يكون مصدراً له وقضية أسبقية شعر أمية بالنسبة لآيات القرآن الكريم مستحيلة ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأمية متعاصران وفي نفس العمر تقريباً، بالإضافة إلى أن أمية استمر في قرض الشعر، طوال ثماني سنوات بعد نزول آخر آية من الآيات المكية التي يمكن أن تشبه شعر أمية، وعليه يكون من التعسف بمكان من يدعي أن هذا الشعر كان سابقاً للقرآن تاريخياً، على أن هذا الشاعر لم يدع لنفسه الأصالة ولا الإلهام في حين أن محمداً صلى الله عليه وسلم أعلن في صراحة ووضوح على الملأ بأنه لم يأخذ تعاليمه من بشر، ويقظة خصوم النبي عليه الصلاة والسلام غير خافية، فلقد كانوا يتلمسون أي ثغرة ليسددوا منها رميتهم ويحولوها إلى سخرية واستهزاء، فكان الأجدر بهؤلاء الخصوم لو كان الأمر كذلك أن يضعوا يده على ما سرقه من شعر أمية الذي لم يجف مداده بعد بدل أن يذهبوا بحجتهم كل اتجاه حتى وصلوا إلى وصم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون

تفسيراً لظاهرة الوحي الغريبة.[1]

ومن خلال هذا البحث والتنقيب في بيئة الأدب والشعر تأكد لدينا أن هذه البيئة غير قادرة على امدادنا بتفسير طبيعي خارجي لمصدر القرآن الكريم، فلعلنا نظفر بذلك في بيئة الأفكار الشعبية فلننتقل البحث إليها.

لا نتصور أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد عاش منعزلاً عن قومه خالي الذهن عن أي علم يتعلق بالاديان السابقة والقرآن الكريم يعرب عن توفر بعض المعلومات عن الأديان السابقة للمجتمع العربي مما دفع به أن يطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يأتيه بآيات ربانية دليلاً على صدق دعوته كما فعل المرسلون الأولون «فليأتنا بآية كما أرسل الأولون»[2]، ويستدل على دعوة الوحدانية معارضاً لها بأنه يسمع بها في آخر الأديان «أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق»[3]، كما أننا لان نتصوره أقل من قومه اهتماماً بهذا الجانب فإذاً هو أوفر منهم حظاً وأوسعهم إطلاعاً وأحدهم ذكاءاً، ولكن أسباباً كثيرة تحول بيننا وبين أن نطلق العنان لخيالنا في هذا الموضوع ذلك أن الصورة الحقيقية للأفكار الدينية الصحيحة تكاد تكون معدومة حتى في وسط أهل الكتاب، كما أسلفنا في بحثنا لبيئة أهل الكتاب، فكيف نتوقع وجودها في هذا الوسط الشعبي الوثني الذي يغلب عليه الإعتزاز بجنسه ولا يعبأ إلا بما يتعلق بمصالحه أو تاريخه القومي حتى أن أدبه يكاد يكون خالياً تماماً من الموضوعات الدينية في حين أنه يزخر بالمظاهر الحضارية المادية وأساطير الملوك وبذخ القصور وترفها.

فكل ما نستطيع أن نتصوره في هذا الوسط الشعبي من علم لا يعدو أن يكون فكرة بدائية مبهمة لا تقدم لنا حلاً ولا تهدينا إلى مصدر الحقائق القرآنية التي اتسمت بالعمق والدقة، والقرآن الكريم يشمخ بحدة تعاليمه بالنسبة للعرب جميعاً، بما فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام، «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا»[4]، «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين»، ولنفرض أن بعض التفاصيل وصلت

(1) انظر مدخل، ص 143.
(2) سورة الانبياء، آية 5.
(3) سورة ص، آية 5.
(4) هود، آية 49.

إلى معارف العرب فهل كان محمد صلى الله عليه وسلم يضع ثقته في معارف الجماهير بسهولة ويسر وهو الذي يشك فما يرويه العلماء، ويقف منه موقف التحدي، بالإضافة إلى أن هذه المعارف التي كانت رائجة في المجتمع العربي ليست ذات طابع موحد، بل لكل طائفة إتجاه معين واسلوب خاص في عرض الحقائق، ففي أي طائفة يضع محمد صلى الله عليه وسلم ثقته؟ وعلى أي منوال ينسج دعوته؟ أمن هذا الخليط من المتناقضات؟ ولقد صدق الله حيث يقول: «ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»[1]، وفي آخر مطاف تنقيبنا في هذه الفترة المكية يتعين علينا أن لا نغفل جانباً مهماً وهو الجانب الشخصي ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان محبباً إليه الخلاء سواء كان ذلك أبان رعيه للغنم في شبابه، أو في فترات تعبده بـ«حراء» قبيل بعثته فكان غارقاً في تأملاته العميقة باحثاً عن الحقيقة غير أنه ما كان يأمل أن يكون رسولاً ولا كان يرجو أن يلقى إليه الكتاب.[2]

ولم يكن من العسير أن نتصور محمداً عليه الصلاة والسلام بعد انتهاء تفكيره العميق وبحثه الذكي الواسع يعقد مقارنة يقوم فيها بالاختيار والتحديد.

غير أنه يجب أن نفرق بين نوعين من أنواع المعرفة:

النوع الأول: المعرفة الناشئة عن أحداث الحياة اليومية.

والنوع الثاني: المعرفة التي سبيلها العقل.

فمعرفة النوع الأول ليست خاضعة لمنطق العقل، ذلك أن التاريخ الإنساني مليء بالاحداث التي تتعارض مع ما يقبله العقل، ومحمد صلى الله اليه وسلم بانطوائه على نفسه وإغراقه في تأملاته أنى له أن يكتشف أن حادثاً ما وقع في زمان كذا من الأزمنة الخالية؟ ولهذا نرى جهوداً مكثفة بذلت في المقارنة بين القصص القرآني، وبين قصص الكتب السماوية الاخرى، تلك المقارنة التي أنتجت توافقاً عجيباً إن دل على شيء فإنما يدل على وحدة مصدر هذا القصص، ومن هنا يتجلى لنا عدم جدوى التأملات العقلية في مجال الاحداث الواقعية وليس الأمر كذلك في مجال المعرفة العقلية مجال الكشف عن الحقائق الأزلية، غير أن مجال العقل يضيق كثيراً وينحسر في فهم عالم الغيب، ذلك أن الذي في مقدوره هو أن يبين لنا ضلال الوثنية والخرافات وما فيها

---

(1) النساء، آية 82. (2) انظر: عرب الجزيرة، د. محمد نجار، ص 147.

من فراغ وعدم جدوى وهذه كلها معطيات سلبية، والدعوة أو المذهب أو النظرية تبنى على المعطيات الإيجابية، وكأني بمحمد صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة شأنه شأن الحنفاء يقف في هذا المنعطف الخطير قلق النفس حزين القلب مثقل الكاهل، كما يصوره القرآن الكريم «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك»[1].

ولنفرض أنه اجتاز هذه المرحلة سريعاً وانكشفت له الحقيقة الكلية بسهولة، ولكن القرآن الكريم يشتمل على كثير من العلوم الدينية غير معرفة الله تعالى، تلك العلوم التي يعتبر طريقها طويل وشاق ان لم يكن مغلقاً ومسدوداً أمام العقل البشري، مهما أوتي من ذكاء لأن امكانياته محدودة. انظر معي إلى «أرسطوطاليس» الذي يعتبر شعلة من الذكاء، ومثلاً أعلى في صفاء العقل، حتى لقب بالمعلم الأول، لقد كتب فلسفة جميلة بمنطقه الرصين، وانه ليعتبر غرة بيضاء في جبين الفكر الاغريقي، غير أنه أخفق في فلسفة ما وراء الطبيعة، فحينما توصل إلى معرفة العلة الأولى على حد تعبيره «الله»، وأراد أن يصور العلاقة بين الله والكون فلم يزد أن صور إلهاً جامداً لا يتحرك، وإنما الكون يتحرك إليه عن طريق الشوق الطبيعي الموجود في الكائنات، وليس للعلم والإرادة الإلهية فيها أي تدبير[2]، «ففكرة أرسطو في تنزيه الإله كانت جليلة المبدأ نبيلة الغاية لكنها رديئة الوسائل سيئة النتيجة لذا كانت هدفاً للطعن ولم تصمد أمام النقد»[3].

ولابد أن تكون كذلك لأن امكانيات العقل الإنساني محدودة وقاصرة عن إدراك كنة العالم الغيبي فبأي إلهام إذاً يستطيع محمد صلى الله عليه وسلم أن يصف الله تعالى بصفاته العديدة ويذكر أسماءه الحسنى وأن يعرب عن علاقة الله بالكون المنظور وغير المنظور، وأن يخبر عن الحياة الاخرى وما ينتظر الإنسان فيها دون أن يتراجع عن حقيقة واحدة سبق إعلانها مع احتفاظه بالتوافق العجيب في كل ذلك مع الكتب السماوية السابقة المحفوظة من التحريف تحت يد العلماء!

---

(1) الانشراح، آية 1-3.

(2) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، ص 236.

(3) الفلسفة الإسلامية، د. محمد السيد نعيم وزميله، ص 79.

فيما لاشك فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم مهما أعطي من ذكاء في العقل وصفاء في الفطرة فلا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في هذا المجال بمثل هذه الثقة والوضوح، لو لم يأو إلى ركن شديد يمده بفيض من هذه التعاليم التي ليست في طوق البشر كما يؤكد هذه الحقيقة القرآن الكريم بقوله: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا».[1]

وذلك بصرف النظر عن البناء التشريعي بمظاهره المختلفة الاخلاقي منها والإجتماعي والتعبدي، كيف نعبد الله؟ ما هي قاعدة السلوك المثلى للفرد والمجتمع والإنسانية؟ لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يجهل كل ذلك، فهل كان في استطاعته هداية غيره، بينما كان عاجزاً عن هداية نفسه في أمور دينه[2]، ولقد صدق الله إذ يقول: «ووجدك ضالاً فهدى».[3]

تلمس مصدر للقرآن الكريم في الفترة المدنية:

لقد انتهت رحلتنا السريعة في آفاق الفترة المكية وكانت حصيلة بحثنا تلك المعطيات السلبية التي لا تصلح أن تكون مصدراً للقرآن الكريم مع أن الباحث حينما يقدم على دراسة هذه البيئة الخصيبة يحذوه الأمل في الظفر بمقصوده والفوز بمراده، ولكن سرعان ما ينقلب إليه بحثه خاسئاً وهوحسير، تلك الفترة الطويلة التي نزل فيها ما يقرب من ثلثي القرآن الكريم تعطينا هذه النتائج السلبية، ولولا أن تغيراً ما طرأ على مسيرة الدعوة المحمدية لاصدرنا حكمنا الآن. ذلك أن مؤشر احتمال حصول محمد عليه الصلاة والسلام على تعاليمه من مصدر بشري قد مال إلى الإنخفاض لأن محمداً صلى الله عليه وسلم منذ أن صدع بدعوته دخل التاريخ من أوسع أبوابه، فخطواته معدودة و إتصلاته محسوبة وكل تحركاته مراقبة من قبل معارضيه ذلكم التغيير الذي طرأ مع الهجرة المباركة هوانتقال محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك الوسط الوثني الخانق العنيد إلى هذا الوسط الدافىء الرحب الودود الذي يحوطه فيه المخلصون من أتباعه الاشداء، «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم»[4]، وهومنذ ذلك الحين

---

(1) الشورى، آية 52.
(2) مدخل إلى القرآن الكريم، ص 148.
(3) الضحى، آية 7.
(4) الفتح، آية 29.

على اتصال بيهود المدينة وهم طائفة منظمة دينياً ولها كتابها المقدس فهل لنا أن نطمع في هذه البيئة الجديدة أن تمدنا بفرصة سانحة لعقد بحوث تاريخية ومقارنات بين المبادىء التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام وبين ما يوجد عند هذه الطائفة المتدينة؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تستدعي أن نلقي نظرة على الفترة المكية سالفة الذكر لنرى إلى أي مدى كان القرآن الكريم ينظر إلى هذا المجتمع الجديد على أنه قدوة حسنة ومثل أعلى للفضيلة المنزلة من عند الله حتى يكون خليقاً بأن يحتذى وأحق بأن يتبع، غير أننا سنفاجأ من أول وهلة بذلك التعارض الصارخ والنظرة المشمئزة بين موقف القرآن الكريم الثابت من المجتمع اليهودي، وموقفه من المجتمع المسيحي، إذ نراه حينما يتحدث عن المسيحيين بصفة خاصة ان لم يثن عليهم «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى»[1]، فانه يتلطف في تعنيفهم بتوجيه بعض اللوم في لهجة مخففة نسبياً، «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون»[2]، وليس الأمر كذلك حينما يتكلم عن اليهود خاصة أو عن أهل الكتاب عموماً، فانه يعتبرهم قد انسلخوا من دينهم الذي أنزل إليهم من ربهم واتبعوا أهواءهم وإلهام شياطينهم، «تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم»[3]، وعندما ألمح القرآن الكريم إلى حادثة أصحاب الاخدود من المسيحيين الذين خيرهم الملك الحميري «ذونواس» ـ الذي اعتنق اليهودية ـ بين اعتناق دينه أو الموت، فاختاروا الموت على انسلاخهم من دينهم، فحفر لهم اخدوداً وأفناهم بين حرق وقتل[4]، نراه ينحاز إلى صف المسيحيين ويعتبر ما أوقع بهم جريمة شنعاء وتآمراً سافراً مع سبق الاصرار على أصحاب الإيمان الحق «قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد»[5].

---

(1) المائدة، آية 85.
(2) المائدة، آية 14.
(3) النحل، آية 63.
(4) انظر: التاريخ الإسلامي، جـ 1، ص 52.
(5) البروج، آية 4-8.

وبعد انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ظل الموقف القرآني إزاء اليهود ثابتاً لم يتغير ان لم يكن زاد بشاعة وتشهيراً إذ رسم لهم صوراً كثيرة من الإدانة وسوء المعاملة، «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما»(1)، «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين»(2)، «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»(3)، إلى غير ذلك من الآيات التي تصفهم بالغش والمكر والخداع والفساد في الأرض.

وبعد أفليس من التعسف بمكان أن نفترض أن هذه الطائفة التي يقف القرآن منها هذا الموقف أن تكون مثلاً أعلى لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومصدراً لدعوته؟ ان ذلك لعين التناقض والتعارض مع المنطق السليم ومع ذلك لا نبالي ببحثه ودراسته فلعل الوقائع تكذب أي حكم جزافي مسبق، ان بعض الكتاب الاوروبيين حاولوا جاهدين أن يثبتوا لنا أن ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم أخذ يتطور ويتعدل نتيجة اتصاله بالمجتمع المدني المزود بالعلم والمعرفة، متأثرين في ذلك بمظهرين عامين تراءى لهم أنهما متعارضان مع ربانية الرسالة، وتتركز حججهم في موقف الرسول عليه الصلاة والسلام المعادي الذي اتخذه بالمدينة، واعتبروا ذلك تغييراً مفاجئاً بالنسبة لموقفه في مكة، أضف إلى ذلك تعدد زيجاته صلى الله عليه وسلم في آخر مطافة الذي يشكل في نظرهم هدماً لنظام الأخلاق الإسلامي في مرحلته الاخيرة(4)، وان من ينظر إلى تصوير هؤلاء المستشرقين للموقف حتى من أصدقاء الإسلام الذين لم تكن لهم دراية بالإسلام ودعوته فانه ينتابهم القلق ويهرع إليهم الفزع وهم يرون قائد الدعوة ملطخ اليدين بالدماء تحيط به كوكبة من زوجاته بعدما كان في مكة مسالماً يسكن إلى مودة زوجة واحدة.

وأنا بدوري لا أريد أن أوسع دائرة هذه العجالة ولكن سأعالج هاتين

---

(1) النساء، آية 161.
(2) الجمعة، آية 5.
(3) البقرة، آية 79.
(4) انظر: مدخل إلى القرآن الكريم، ص 152.

النقطتين بإيجاز ما استطعت إلى ذلك سبيلا فأقول: ان النقطة الأولى وهي مشروعية القتال في الإسلام تحتم علينا أن نقدم لمحة زمنية متقدمة عليها لنرى الظروف والملابسات التي أدت إلى الاجراءات الحربية المباشرة، ان الباحث للفترة المكية يرى ما أظهره الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قوة احتمال وصبر جميل على ألوان التعذيب والتنكيل وصل الى حد المقاطعة، والرسول عليه الصلاة والسلام ازاء هذا وذاك يتطلع إلى السماء ضارعاً «اللهم إذا لم يكن بك غضب علي فلا أبالي»[1]، وقد هاجر أصحابه إلى أكثر من اتجاه فراراً بدينهم إلى أن تهادت بهم سفن الاقدار إلى بر السلامة والأمان بيثرب ـ أي المدينة المنورة ـ بعد ثلاثة عشر عاماً من القهر والإذلال تحملوا ذلك كله في جلد وصبر دون الإلتجاء إلى استخدام القوة، ولم يتعجل الرسول صلى الله عليه وسلم في اللحاق بهم على الرغم مما يحيط به من الاخطار، ولم يكن ليفعل ذلك دون إذنٍ صريح من السماء ظناً منه أن المطلوب إليه اطالة بقائه في مسقط رأسه ومهبط دعوته، مبقياً على صاحبيه أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، ولكن قوى الشر والعدوان قد تواطأت على تنفيذ مؤامرة دنيئة تستهدف القضاء على حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي اليوم السابق لتنفيذ هذه المؤامرة البشعة تلقى أمر السماء بالهجرة، وعند ذلك غادر الرسول عليه الصلاة والسلام مكة سراً مصطحباً معه أبي بكر، وعهد إلى علي أن يغطي انسحابه، ولسنا بصدد تبيان حادثة الهجرة وكيف نجا الرسول عليه الصلاة والسلام بقدرة قادر من هذا الخطر المحدق به.

بعد هذا ألم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام خليقاً بأن يفكر في الانتقام من أعدائه الذين آذوه وأرادوا القضاء عليه؟ ولكن الواقع التاريخي يؤكد لنا أن شيئاً من ذلك لم يكن قد حصل، إذ المتتبع لنشاط الرسول صلى الله عليه وسلم في عامه الأول وشطر من الثاني، يجد أنه وجه جهوده لأعمال سلمية ومنجزات بناءة نبيلة كتشييد المسجد وسن نظام الأذان وتنفيذ فريضة الصوم وتنظيم المجتمع داخليا من مؤاخاة ومعاهدات[2]، وما من شأنه أن يوفر الأمن والطمأنينة لهذا المجتمع الجديد،

---

(1) زاد المعاد، جـ 2، ص 46.

(2) انظر: في الثقافة الإسلامية، للزميل د. محمد الدسوقي، ص 37 وما بعدها.

وكل شيء يبدو إبان ذلك وكأن المسلمين أعرضوا بوجوههم عن مكة بدون رجعة حتى في قبلة صلاتهم إلى أن جاء منتصف العام الثاني، حيث بدأوا يتحرشون بقريش ويتعرضون لقوافل تجارتها تمهيداً لمنازلتهم في القتال وهو تغير مفاجىء بحق، أيجوز أن ننسب الباعث على هذا التغيير إلى نفسية الرسول عليه الصلاة والسلام؟ ولكن الدراسات المخلصة النزيهة التي أيقن بها المستشرقون أنفسهم تأبى علينا ذلك لأن الإجراءات الحربية والمصادمات المسلحة لم تكن من طبع الرسول عليه الصلاة والسلام ولا من عاداته، بل العكس هو الصحيح انظر معي إلى هذا العتاب القرآني الذي يوجهه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بسبب تسامحه وعفوه عن المشركين واستغفاره لهم «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم»(1)، «ما كان للنبي وللذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى»(2)، وكتب السيرة تزخر بكثير من الوقائع التي تجلى فيها عفوه وتسامحه عن جرائم ارتكبت في حقه، أو حق ذويه، منها على سبيل المثال لا الحصر عفوه عن الرجل الذي جاء لاغتياله بعد موقعة بدر موفداً من قريش، وعن اليهودية التي دست له السم في الطعام بخيبر، وعن اخرى دفعت ابنته زينب بعنف وهي حامل فأجهضتها.(3)

كما أن حديث الإفك ضد عائشة المبرأة، لازال صوته يجلجل في أسماع التاريخ قد وسع عفوه صلى الله عليه وسلم الذين خاضوا فيه، ولم يضق بهم ذرعاً، وإذا كان هذا طبعه وتلك عادته فهل يحق لنا أن نقول ـ كما ذهب إلى ذلك بعض الكتاب ـ ان جماعة المسلمين قد مارست عليه ضغوطاً أجبرته على هذا الإتجاه، تلك الجماعة التي امتازت بتلك الروح الحربية وطبعت عليها؟ ولكن بحوث العلماء الذين تعمقوا في دراسة الغريزة العربية لا تؤيد مثل هذا الافتراض، بل ان هذه الابحاث أثبتت أن الدماء تثير الفزع في نفوس العرب، وأن البدو لا يحرصون على الحروب، إلا أنها إذا فرضت عليهم يقبلونها بدلاً من تحمل الذل والعار حتى بالنسبة لما يقع بين القبائل الرحل من غزو فانها تتجنب فيه سفك الدماء ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.(4)

---

(1) الانفال، آية 67.

(2) التوبة، آية 113.

(3) انظر: الشمائل، جـ 1، ص 25.

(4) انظر: مدخل، ص 57.

وحيث أن الأبحاث لا تساعد على تفسير هذا التغيير عن طريق تحليل نفسية الرسول صلى الله عليه وسلم لا تحليل نفسية الشعب، فانه يتعين البحث عن دوافعه في حدث تاريخي، ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من مكة وهوقانط من أن يسلم أحد في هذا البلد الوثني، ولم يترك بها أحدا ينشغل عنه، ولكن الواقع لم يكن كذلك لأن القرآن ينقل إلى أسماعنا صرخات أولئك المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين أسلموا بمكة ولا سند يعينهم على اللحاق باخوانهم في دار الهجرة، أو يدفع عنهم ويلات الظلم والقهر «والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالمِ أهلها وأجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا».[1]

تلك ثمرة شجرة الايمان التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ولو في غياب صاحبها ودون أية دعاية، ولكما خفقت القلوب بالايمان تصدت لاخمادها قوى الظلم والعداوة والجبروت في غيرما شفقة ولا رحمة تاركة وراءها ضحايا يتعذبون بإيمانهم ويرجون النجدة والعون من أخوانهم. أبعد هذا يرون للمسلمين الأولين من مهاجرين وأنصار أن يعيشوا في مأمنهم ولا يعيروا اخوانهم بمكة أي اهتمام؟ بالإضافة إلى ما ذاقوه أنفسهم من ويلات وتعذيب ومن خسارة في الأموال والديار، ومع ذلك كله نرى القرآن الكريم يعرض علينا صوراً من التردد والتراجع من جانب المسلمين في تقديم العون العسكري الذي يستهدف تحرير اخوانهم بمكة والمبرر لهم في ذلك هوكراهيتهم للحرب «كتب عليكم القتال وهوكره لكم»[2]، وغريزة حب البقاء «وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى».[3]

اضف إلى ذلك تلك الظروف الخاصة التي سيطرت على تفكيرهم حتى رأوا أن الحرب مستحيلة لأنهم نظروا إلى عدوهم الذي يفوقهم عدداً وعدة فرأوا من الأفضل أن يقوموا ببعض الأعمال الإنتقامية تجنباً للمصادمة العسكرية المباشرة وتعويضاً لأموالهم وممتلكاتهم التي استولت عليها قريش، وفي هذا القدر ما تشعر قريش بقوتهم فتطلق سراح اخوانهم ورأوا أفضل وسيلة لذلك كله هواعتراض طريق قافلة قريش التجارية

---

(1) النساء، آية 75. (2) البقرة، آية 216. (3) النساء، آية 77-78.

والظفر بها دون منازلة «و إذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم»[1]، ولكن ارادة الله ابت عليهم الا أن يدفعوا ضريبة التضحية والفداء حتى يفصل الصراع القائم بين الحق والباطل «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون»[2]، لقد بدأ الصبح لكل ذي عينين ليضطلع كل إنسان بواجبه حتى يعرف لماذا يموت؟ ولماذا يعيش؟ «ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة وان الله لسميع عليم»[3]، المسلمون من أجل دعوتهم المقدسة والمشركون من أجل وثنيتهم المخجلة «الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت»[4]، هذه هي الظروف والملابسات التي صاحبت أول شرارة حرب مسلح بين المسلمين وكفار قريش أرتنا كيف تجنب المسلمون طيلة إقامتهم بمكة أي رد فعل عنيف متحملين جراحهم ببسالة وصبر ذلك أن الاضطهادات اصطبغت بطابع فردي، أما الآن فقد تحولت كراهية المشركين إلى صفة العموم «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا»[5]، فقد أذن الله للمؤمنين في أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن كيانهم والذود عن اخوانهم المستضعفين مستلهمين النصر من الله وحده «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»[6]، ومن هذا يتجلى لنا أن موقف المسلمين الدفاعي كان مشروعاً ولا يلاحقهم أي لوم فيه ولا يعتبر تغيراً بالنسبة لصاحب الدعوة، بل هو أمر طبيعي «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين»[7]، ولا أريد أن أخوض تفاصيل الحرب ونظامها وسموها في الإسلام لأنني ذكرت ما يحصل مقصود البحث وكفى.[8]

ولننقل الحديث إلى النقطة الثانية، وبالله التوفيق، تلك النقطة التي تتعلق بتعدد زيجات الرسول والتي قد تمس موضوع بحثنا من بعيد، وهو القرآن الكريم الذي

---

(1) الأنفال، آية 7.
(2) الانفال، آية 8.
(3) الانفال، آية 42.
(4) النساء، آية 76.
(5) البقرة، آية 217.
(6) الحج، آية 39.
(7) البقرة، آية 190.
(8) انظر: مقارنات، ص 97 وما بعدها.

لا يتوانى في إلقاء الضوء على حياة الرسول عليه الصلاة والسلام الخاصة، محدداً لها بخطوط ثلاثة «الشعور»، و«الإرادة»، و«الايمان»، وذلك أنه بشر شأنه شأن بقية المرسلين «وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون»[1]، يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وله كحالهم زوجات وذرية، «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية»[2]، فضلا عن أنه يقدر الجمال الإنساني «ولو أعجبك حسنهن»[3]، ولما كان هناك اتفاق على تحديد الحاسة الخلقية بأنها تكمن في السيطرة على الميول والأهواء الذاتية لا في انعدام الشعور تعين الأخذ بالعامل الثاني وهو الإرادة وحينئذ يظهر الرسول صلى الله عليه وسلم بقدرته الفائقة على الامتناع وصلت إلى حد أنه يستطيع أن يحرم المباح له بمجرد سوء تفاهم يبتغي بذلك مرضات أزواجه «يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك»[4]، ولقد اخبرت عنه عائشة رضي الله عنها بأنه «لا يوجد مثله في التحكم في حواسه»[5]، بالإضافة إلى المرحلة الاخيرة وهي خضوعه المطلق لتعاليم السماء التي هي فوق كل اعتبار عنده، تلك التعاليم التي تحدد له فئات النساء اللاتي يحل له الزواج منهن «يأيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللائي اتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللائي هاجرن معك و إمرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي»[6]، ثم تأتي في وقت لتحرم عليه حق عقد أي زواج تحت أي ظروف أو رغبة كما تحرم عليه أن يتبدل بزوجاته زوجات اخرى، ولوأعجبه حسنهن «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن».[7]

ثم تصل تلك التعاليم ذروتها وتفرض عليه زواج زينب مطلقة ابنه من التبني وهي الزيجة الوحيدة التي ذكرت في القرآن الكريم ابطالا لقاعدة التبني التي كانت سائدة في البيئة الوثنية، ليس بالنص فحسب، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتمنى، و إنما بالتطبيق العملي وهوزواج بدافع الواجب رغم أي شعور معارض.[8]

---

(1) الانبياء، آية 7.
(2) الرعد، آية 38.
(3) الاحزاب، آية 52.
(4) التحريم، آية 1.
(5) البخاري، كتاب الصوم، باب 23.
(6) الاحزاب، آية 50.
(7) الاحزاب، آية 52.
(8) انظر: مدخل، ص 153، والتاريخ الإسلامي، ص 148.

«و إذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما لله مبدية وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها».(1)

وهكذا بقية زيجات الرسول عليه الصلاة والسلام فان الدارس لحياته يتضح له أنها فرضت عليه فرضاً، ولكن ليس لضرورة تشريعية مشابهة، و إنما لاعتبارات إنسانية نبيلة وأسباب سامية كريمة مثل مواساة زوجة رجل تنصر وهي في غربة، وتشريف زوجة شهيد، أو لمهاجرمات في هجرته، أو توثيق صلة بينه وبين القبائل التي تعاهد معها، أو إيجاد حل لفك أسرى قبيلة بحالها وقد أعتق الصحابة سبايا بني المصطلق تكريماً لزواج الرسول عليه الصلاة والسلام من جويرية حتى قالت عائشة رضي الله عنها «فما أعلم أن إمرأة كان أعظم بركة على قومها من جويرية إذ بتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم إياها أعتق مائة من أهل بيت بني المصطلق».(2)

ولمثل هذا الغرض النبيل كان زواجه من جويرية لا لشهوة يقضيها بل لمصلحة شرعية يبتغيها لأنه لوكان يقصد الشهوة لأخذها أسيرة حرب بملك اليمين، وكذلك بقية زيجاته، فانها كلها تمت في ظروف إنسانية ملحة هدفها المصلحة العامة دون أي مأرب آخر، ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم عاش شبابه في عفاف مطلق، ثم بعد زواجه من السيدة خديجة التي تكبره بعشر سنوات وكانت ثيباً ظل قانعاً بها في إخلاص تام ما يقرب من ثلاثين سنة، ولم يشرع في زواجه الثاني إلا بعد وفاتها وقد قارب الخامسة والخمسين، ولم يبن ببكر سوى عائشة التي اختارها لإعتبارات سامية شريفة.

أبعد هذا يليق بعاقل أن يسمع تلك الدعاية المغرضة التي يقوم بها أعداء الإسلام ويصفون محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه أسير شهواته ويفسرون زيجاته المتأخرة بدافع جنسي؟

كما أننا نرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينجب ولدا من زيجاته اللائي تزوجهن بعد خديجة وما ذلك إلا أن علاقته الجنسية بهن كانت محدودة ان لم تكن معدومة، وذلك لانشغاله ومشاغلة بأعباء رسالته التي تنوء بها الجبال مثل: تعليمه للقرآن الكريم، إقامة الصلوات الخمس، توزيع الصدقات، الفصل في المنازعات،

---

(1) الاحزاب، آية 37. (2) انظر: مقدمة كتاب السير الكبير، ط جامعة القاهرة.

مقابلة الوفود ومراسلة الملوك، اعداد المعارك العسكرية وقيادتها، سن التشريع وتأسيس الدولة، ناهيك بقيام الليل الذي يبيته راكعاً وساجداً لله تعالى رب العالمين، كل هذه الإعتبارات تؤكد أن الباعث الحقيقي على تعدد زيجاته الأخيرة هو نداءات وجدانية إنسانية سامية بعيدة كل البعد عن إرضاء الغريزة الجنسية، هذا ونخلص بالقول بأن هذه الفترة مجدبة وقاحلة بالنسبة لأعداء الإسلام، ذلك أن بحوثهم التي تخصصت في الكيد للإسلام ودعوته رجعت بخفي حنين ولم تصل نتائج هذه البحوث ـ كما رأينا ـ إلى حد الشبهة فضلا عن الحجة، وإنما هي أوهام وخيالات لا تجديهم فتيلا ولا تضير صاحب الإسلام ودعوته، ولقد صدق الله إذ يقول: «فان لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين».(1)

ملاحظات ختامية

لقد جبنا آفاق الفترة المكية والمدنية مسترشدين بالوقائع التاريخية باحثين عن مصدر بشري للقرآن الكريم فصاحبنا محمداً في مراحل حياته المختلفة، حياته رجلاً عادياً، وحياته رسولاً نبياً في مسقط رأسه مكة أم القرى، أو في مدينته المنورة في ظعنه وإقامته، وفي رحلاته وإتصالاته، وفي تفكيره وتأملاته، وفي معاملته وتشريعاته، وفي قراءته وإطلاعاته. فكانت معطيات هذه الرحلة الطويلة الشاقة كلها معطيات سلبية غير قادرة على تقديم أي احتمال لتفسير طبيعي أمده بهذه الحقائق المقدسة، ومهما بذلنا من مجهود ذهني في تضخيم معلوماته السمعية ومعارفه البيئية فانه ليس في امكاننا أن نعتبرها تفسيراً كافياً لذلك الصرح الشامخ من العلوم الواسعة والمعارف المفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في كثير من المجالات، كمجال الدين والأخلاق والقانون والتاريخ والكون وما إليها. ذلكم الصرح الذي رفعت قواعده في مدة ثلاث وعشرين سنة من إنسياب تلك الظاهرة العجيبة التي كانت بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام تجربة عاشها ولم يصطنعها، وإنما كان يتلقاها بكل سلبية وليس في مقدوره الهرب منها ولا في استطاعته أن يتهيأ لها وقت الحاجة إليها، تلك الظاهرة

---

(1) القصص، آية 50.

الغريبة هي ظاهرة الوحي التي يتعين علينا أن نولي وجوهنا نحو قبلتها في تفسير المصدر الحقيقي للقرآن الكريم «وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين»[1]، تلك الظاهرة الغريبة التي انزعج منها الرسول عليه الصلاة والسلام عند أول عهده بها تختلف تمام الإختلاف عن إلهامات الشعراء والفلاسفة لأنها ليست أفكاراً نابعة من داخل نفس الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما هي سماع صوتي، فالأفكار فيها لا تسبق الحديث حتى في كيفية تلقيها وتبليغها للناس، نرى القرآن الكريم يرسم لنا أبعاد الطريق التي ليس لفكره فيها أي دور ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما علم أنه مكلف بتبليغ القرآن الكريم حرفياً إلى قومه رأى نفسه مضطراً إلى التكرار كلمة كلمة أثناء تلقي الوحي وظل ملازما لتلك الطريقة إلى أن جاءه الأمر الالهي في عزة وكبرياء «لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه».[2]

وكل هذا يسترعي الإنتباه ويجعلنا أمام وحي نصي يملأ القلوب خشية وتقديساً ولهذا نرى الرسول عليه الصلاة والسلام ترتعد فرائصه أمام القرآن الكريم خشية أن ينسب إلى الله قولا لم يقله، ذلك أنه محظور عليه إضافة أي تعديل وموقفه عند تفسيره كموقف أي مفسر تجاه نص ليس له مع ايقانه بالمراقبة الدقيقة المضروبة حوله في كل ما يأتي ويذر حيال رسالته.

كما أن القرآن الكريم ليس انعكاساً لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام لأننا نراه يغفله في أغلب الأحوال، ولا يتحدث عنه، وان ذكر شيئاً فلأجل أن يحكم عليه أو ليضبط سلوكه أو يسيطر عليه فاننا لو تتبعنا القرآن الكريم باحثين عن صورة لأفراح الرسول وآلامه، فلن نجد لتلك الصورة أثراً مع العلم بأن حزن الرسول عليه الصلاة والسلام كان عظيماً على أولاده الذين انتقلوا جميعاً إلى الرفيق الإعلى في حال حياته سوى فاطمة، ذلك الحزن الذي عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاة ابنه ابراهيم بقوله «ان العين لتدمع وان القلب ليخشع وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون»[3]،

(1) الشعراء، آية 192-195.

(2) القيامة، آية 16-19.

(3) رواية البخاري: ان العين تدمع وان القلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وانا بفراقك. كتاب الجنائز عمدة القاريء، جـ 8، ص 101.

كما كان لوفاة زوجه الحنون وعمه الغيور «أبي طالب» بالغ الأثر والتأثر في نفسه الكريمة حتى سمي عام وفاتهما بعام الحزن، ومع هذا لا نجد أي صدى لذلك كله في القرآن الكريم، في الوقت الذي نرى فيه التعارض واضحاً بين القرآن الكريم، ونفسية الرسول عليه الصلاة والسلام المستسلمة لمجرد تعلق الموضوع بسلوك أخلاقي «عبس وتولى إن جاءه الاعمى»، «ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض»، إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمن اللوم لاقل مخالفة من الرسول صلى الله عليه وسلم للمثل الأعلى المنشود والقدوة الحسنة المطلوبة.

كما أننا نرى حينما لم يتلق تعليماً صريحاً من الوحي الإلهي في أمر ما ذا طبيعة خجولة يعلوها الحياء في وداعة وحلم لا يقطع في أمر دون مشورة أصحابه برأي معترفاً بأنه لا يعلم مصيره ولا مصير غيره «قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين»، ولكن بمجرد تحصله على علم من الوحي يقف موقف المعلم لجميع البشر في ثقة تامة ويقين صادق من صحة ما يبلغ عن ربه «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد»، كما أخبروهو في مكة قبل الهجرة بأنه من جوهر رسالته هداية أهل الكتاب، وذلك بتبيان الحقيقة في كل خلافاتهم ومنازعاتهم، «ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون»، «وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

وفي هذا الموقف المتسم بالحزم والذي لا يعرف مجاملة هذا ولا ذاك، لا يرى فيه أي أثر لبرود الذكاء الذي يمكن أن يرفض اليوم أو يتلجلج فيما أعلنه بالأمس أو أن يهدم مستقبلاً ما قد بناه الآن، ذلك أن هذا الموقف الصلب ليس نابعاً من أعماق نفسه وليس انعكاساً لشخصيته، وإنما هو نابع من قوة عظيمة تفوق قوة الإنسان واستعداداته، تلك القوة الهائلة التي يأوي إليها محمد صلى الله عليه وسلم وتحكم جميع تصرفاته، هي قوة السماء التي تمده بروح من عندها، ولذا نراه في المواقف الحرجة وعند تكالب قوى الظلم والطغيان عليه يتمتع بروح لا تضطرب و إيمان لا يتزعزع وعقيدة لا تلين في معية الله وعونه «إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا»، وما ذلك المداد الذي لا ينقطع والمعين الذي لا ينضب إلا الوحي الذي يأتيه به جبريل عليه السلام وهو المصدر الحقيقي للقرآن الكريم، ولقد صدق الله إذ يقول:

«انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون ان هو إلا ذكر للعالمين»، «والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الأعلى».